سينما

صبيّ يروي حكاياتٍ ويطرح تساؤلات

«جيران»: سرديّة واقعية مُشبعة بالسينما

في روائيّه الجديد، يستعيد الكردي السويسري مانو خليل سِيَر بلدة وأناس، مُحوّلاً حَكايات الطفولة إلى فيلم يوازن بين النصّ والشكل

نديم جرجوره

ذكريات شخصية، تُضاف إليها وقائع يعيشها أناسٌ يروون تجاربهم فيها أمام من يحفظها كذاكرةٍ جماعية، وحكاياتٍ خاصة بأفرادٍ. هؤلاء الأفراد يتناقلونها في ما بينهم، إذْ تُشكّل جزءاً أساسياً من تشكيل وعي ومعرفة وأسلوب حياة وسلوك عيش وعلاقات. ما يفعله الكردي السويسري مانو خليل (دارس الحقوق والتاريخ في دمشق، والسينما في تشيكوسلوفاكيا السابقة)، في جديده «جيران» (2021)، منبثقٌ من حالةٍ كهذه: مزيجُ ذاكرة وذكريات ومتخيّل سينمائيّ يُترجِم، بصرياً، أحوال بيئة وأناس، في زمنٍ محدّد. المتراكم في وعي فرديّ (مانو خليل) ينفتح على المُتداول الجماعيّ، فتُكتب حكاية تُصبح نواة درامية لسيناريو سينمائي، ينفتح على السياسيّ والتاريخيّ والاجتماعيّ والانفعاليّ، في بداية ثمانينيات القرن الـ20، في «سورية الأسد». العائلة واللغة والمسالك الاجتماعية والعلاقات التي تتجاوز الدينيّ . الطائفي . القوميّ ظاهرياً (لمحاتٌ عدّة تقول، مواربة، إنّ هناك انكماشاً داخلياً يفرض التزاماً بعقائد دينية واجتماعية وقومية)، تتجاور، سينمائياً، مع سرديّاتٍ عن كيفية البطش بأقليات، وتهميش ثقافةٍ وتقاليد بحجّة الانتماء إلى قومية واحدة في بلدٍ واحد، رغم أنّ الهدف واضحٌ: إلغاء الخصوصيات قمعاً وقهراً. «جيران» يستند إلى هذا كلّه. ومع أنّ كلّ مسألة من «هذا كلّه» تُفيد في إنجاز أكثر من فيلم، يتمكّن مانو خليل، بجمالية سينمائية، من تحقيق معادلات فنية ودرامية وسردية بينها كلّها، من دون الإخلال بأولوية الصورة ومفردات تعبيرها، كما بأهميّة النصّ ومسائله، المنقولة إلى متتاليات بصرية تروي، تمثيلاً ومعالجةً ومساراً ولقطات، فصولاً من تاريخ غارقٍ بالقمع والقهر والبطش، وتطرح تساؤلاتٍ عن هوية وهجرة وعلاقات خارج الموروث المنغلق على نفسه.

يَخرج مانو خليل من سرديّة نضالية، فالاهتمام الوحيد واضحٌ تماماً: تحقيق فيلم سينمائيّ، يتضمّن ما يُمكن اعتباره سرديةً نضالية. والسردية هذه غير سلبية، مع أنّها غير أساسية، فمفرداتها موزّعة في سياقٍ درامي، يسرد يوميات أناسٍ يُقيمون في بلدة واحدة (القامشلي)، تقع على الحدود السورية مع تركيا. سياق منشغلٌ أساساً بكيفية تشييد عمارة سينمائية بأدوات، تعكس شيئاً من حياة، فردية وجماعية، وشيئاً من آليات القمع والقهر، وشيئاً من كيفية تمزيق اجتماع، مبنيٍّ أصلاً على تفاهم ضمني بين مكوّنات اجتماعية مختلفة الأديان والأعراق والثقافات.

> تصويرٌ سينمائيّ لوقائع يمنح الصورة حيّزاً أساسيّاً

الإسراف بقراءة النصّ لن يحول دون تنبّه إلى جمالياتٍ سينمائية، في فيلم يساوي بين تصوير وقائع حيّة ومنح الصورة حيّزها الأساسيّ. التقني والفني حاضران بفاعلية جمالية في مواكبة النصّ وسرديّته، المنفلشة أيضاً على البشريّ (الفرد ككائن حيّ في مواجهته اليومية جماعة تُريد إلغاء حضوره وكيانه وخصوصيته بالقوّة) والثقافيّ (أستاذ المدرسة الصارم في التدريس باللغة العربية، وفي فرض اللغة العربية بالقوّة على الجميع) والعاطفيّ (حبّ بين كرديّ ويهودية). هذا كلّه مرويٌّ من خلال شيرو (سرهد خليل)، ذي الأعوام الـ6، الذي يستعيد الحكايات عند حصولها قبل 40 عاماً، فيكشف سِيَر أناسٍ وبيئة وتقاليد ووقائع، بعينين ساحرتَين، وانفعالاتٍ مؤثّرة، ورغبات بسيطة (يريد جهاز تلفزيون لمشاهدة أعمال «كرتون»، لكنْ لا كهرباء في البلدة)، ومعاينة صائبة ودقيقة للحاصل معه وحوله، وإنْ يكن غير مُدركٍ، حينها، أنّه يُعاين ويُراقب ويوثّق ويحتفظ في ذاته هذا الحاصل معه وحوله.

النواة الدرامية الأساسية مرتبطة بشيرو. يتّضح هذا منذ الدقائق الأولى لـ«جيران»، التالية لبدايةٍ تجري وقائعها، في ثوانٍ قليلة، في مخيّم للاجئين الأكراد في العراق. الدقائق الأولى كافيةٌ لتأسيس نصّ سينمائيّ، يعود 40 عاماً إلى القامشلي، في بداية ثمانينيات القرن الـ20. التحديد التاريخي غير مهمّ، فتفاصيل لاحقة تُظهر أنّ الزمن عائدٌ إلى فترة حكم حافظ الأسد، والأستاذ (جلال الطويل) تمثيلٌ لنظام قامع وقاهر، رغم أنّه (الأستاذ) سيكون أحد ضحاياه، عبر تجاهل النظام له، خاصة في مسألة الاحتفال بوصول الكهرباء إلى البلدة. شيرو كردي غير عارف باللغة العربية. جيران أهله يهودٌ يُتقنون الكردية والعربية. أهله مسالمون، في محيطٍ أكبر، مليءٍ بتجاذبات وتمزّقات ومخاطر. التواصل مع أقارب مُقيمين في تركيا يحصل، بين وقتٍ وآخر، في مكان عسكري يفصله سلك شائك بين سورية وتركيا. الجنديان، السوري والتركي، يتوافقان ضمنياً على إذلال الكردي وإهانته. كلّ شيءٍ ينقلب بقسوة في يوميات شيرو وأهله وجيرانه، عند مقتل والدته برصاصة تركية غير مقصودة. هذا مفصلٌ قاس، يُضاف إليه مفصلٌ لن يكون أقلّ قسوةً: أستاذٌ يُجبره على التحدّث باللغة العربية، وهو غير عارفٍ إياها. مفاصل أخرى، ستكون قاسية أيضاً: انعدام الكهرباء في بلدته. سجن عمّه الذي يُحبّه كثيراً، ثم هروب العمّ من البلدة. سفر الجارة اليهودية مع أمّها. يوميات بلدة. إلخ.

سرديّة «جيران» مرويّة بلغة سينمائية، تُمتّع عيناً رغم ما فيه من قسوةٍ وعنادٍ وتحدّياتٍ.

«جيران»: سِيَر أفراد في مواجهة حُدود مُختلفة الأنواع (الملف الصحافي)

«برونو ريدال» لفانسان لوبور

غوص أخّاذ في جمجمة قاتل استثنائيّ

سعيد المزواري

في الأول من سبتمبر/أيلول 1905، في غابةٍ في منطقة الـ«كانتال» الجبلية (جنوبيّ فرنسا)، قتل شابٌ (17 عاماً)، يُدعى برونو ريدال، طفلاً بريئاً (12 عاماً)، وفصل رأسه عن جسده بوحشية بالغة، ثمّ سلّم نفسه للشرطة. جريمةٌ هزّت الرأي العام الفرنسي، ولا سيّما أنّ مرتكبها شابٌّ، أمضى عاماً في مدرسة دينية لتحقيق هدفه بأنْ يصبح كاهناً، في خضمّ النقاش المجتمعي المحتدم حول مكانة الدين، على هامش تمرير قانون الفصل بين الكنيسة والدولة.

قرّر فانسان لوبور (1986) أنْ يجعل هذا الحدث مادة لفيلمه الطويل الأول، «برونو ريدال» (العنوان الدولي «برونو ريدال: اعترافات قاتل»)، عندما اكتشف صدفةً، في أثناء بحثه في الأرشيف، السطوة الأدبية والصفاء المنبعثين من النصّ المذهل، الذي كتبه برونو ريدال نفسه في فترة اعتقاله، والتحقيق معه، استجابةً للجنة القضاة والأطباء، التي طلبت منه تدوين اعترافاته، وسرد دواعي الجريمة، وخلفيات نزعة القتل، التي يحكي أنّها تملّكته منذ طفولته الأولى إلى لحظة ارتكاب ما لا يُغتفر.

بعد مشهدٍ تقديمي، يُفصح بغموضٍ عن لحظة القتل، يعود الفيلم إلى فترة ترعرع برونو ريدال في وسط قروي فقير، على يدي أمّ غير رحيمةٍ، لا تتردّد في استعمال الضرب والقسوة النفسية في تربيته، ومعاملة أخته البكر. يلجأ فانسان لوبور إلى الصوت الداخلي لريدال، لتمرير شذراتٍ من نصّ الاعتراف، برهافةٍ بالغة، لا تصبّ أبداً في الوصف أو التفسير، بقدر ما ترافق مشاهد حسّية، تلتقط كيف يساهم الوسط القروي، الممعن في الامتهان، في استلاب شخصية طفلٍ في السادسة من عمره، واغترابه، بفضل إشاراتٍ دالّة، مثل ذبح خنزيرٍ أمام عينيه، قبل تقديم رأسه على طبقٍ، تجتمع عليه العائلة في مناسبة دينية؛ أو سقوطه مريضاً بحمّى حادّة، نتيجة ضربة شمس كادت تودي بحياته، بعد يوم كامل أمضاه في حراسة أبقار عائلة غنيةٍ، وفقاً لعادة «استئجار» أطفال العائلات القروية المعوزة في فترات الإجازات. هناك أيضاً مشهد تعرّض ريدال للاغتصاب من راعٍ في سنّ الشيخوخة، يجبره على الاستمناء، فيكتشف إثر ذلك، للمرّة الأولى، القدرة على منح المتعة لنفسه، تمهيداً للازمة اللّذة المرضية، التي سترافق الصبي في مراهقته، قبل أن يتمثّل المخرج، ببراعة، امتزاجها بنزعة القتل في مَشاهد متكرّرة للاستمناء، الذي يمارسه ريدال شاباً بيدٍ، بينما تعبث اليد الأخرى بسكّينٍ يخترق تربة الأرض.

متأمّلاً خلفية أعناق رفاقه في الدراسة، عند استظهارهم الكتاب المقدّس، يُسقِط برونو ريدال (أداءٌ بارع للممثل الشاب ديميتري دُري)، بجسده الهزيل ومظهره الأنيمي، نزعة البغض الممزوج بالانجذاب على أجملهم مظهراً، وأوفرهم حظّاً. خليطُ مرعبٌ وفاتنٌ في آنٍ واحد، بين تأثير إيروس وثاناتوس، يفصح عنه الشاب في نصّ اعترافه، مُتحدّثاً عن شعورٍ يهزّ كيانه، إلى درجة «أنّ الانتقال إلى القتل ليس سوى مسألة وقت». يتجسّد هذا المعطى الأخير في جملة الختم، حيث يعترف ريدال، بعد مشهدٍ يُظهر جريمة القتل وفصل الرأس ببرودٍ وإمعانٍ في التفاصيل، أنّ ما حدث يتجاوز، بحتميّته وتراجيديته، قدرته على المقاومة أو التراجع، رغم سعيه للانغماس في الدين والمطالعة، وتفوّقه في التحصيل والدراسة.

> نزعةُ القتل تتملّك برونو ريدالَ منذ طفولته الأولى

ديمتري دُري مؤدّيا برونو ريدال: «الانتقال إلى القتل مسألة وقتٍ» (الملف الصحافي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أفلام جديدة

■ Blonde لأندرو دومينيك، تمثيل آنا دي أرماس (الصورة): مُقتبس عن رواية «بست سيلرز»، تحمل العنوان نفسه (2000)، للكاتبة الأميركية جويس كارول أوتس (1938). سرد سيرة حياة متخيّلة لنجمة الإغراء ماريلين مونرو، مكتوبة بجرأة وسلاسة، مع الاحتفاظ بصورة خيالية للممثلة والمغنّية وعارضة الأزياء نورمان جين مورتنسن (1926 . 1962)، في خمسينيات القرن الـ20 وستينياته، من خلال «منظور مجتمع مُكرِّسٍ لعبادة المشاهير».

■ Hypnotic لروبرت رودريغز، تمثيل بن آفلك وألِيس براغا (الصورة) ووِيليام فِكْتنر: يُفترض بهذا الفيلم أنْ يُعرض قريباً على منصّة نتفليكس، من دون تحديد موعدٍ ثابتٍ لذلك، إلى الآن. قصّة بوليسية تمتزج تفاصيل سردها بتشويق ومغامرات، إذْ تروي حكاية شرطيّ يُكلَّف بالتحقيق في سلسلة سرقاتٍ تتكشّف عن غموضٍ في تنفيذها. لكنْ، هل هناك علاقة ما بين السرقات ومسألة اختفاء ابنة المُحقّق؟ مسار التحقيق نفسه سيُجيب على هذا السؤال.

■ The Tender Bar لجورج كلوني، تمثيل بن آفلك وليلي راب (الصورة) وكريستوفر لويد وتي شريدان: تدور الأحداث عام 1973، في لونغ آيلاند، حيث يُقيم ماغواير (8 أعوام) مع والدته. بعد خسارتهما منزلهما، يُصبحان من دون مأوى، فيذهبان إلى جدّ الصبيّ للإقامة معه. ماغواير لا يعرف والده المذيع، فيعثر في عمّه صورة للأب. في حانة العمّ، تتوطّد العلاقة بينهما. لا يُجيد أي نوع من الرياضة، ويرغب في أنْ يكون كاتباً، بينما تُصرّ والدته على أنْ يُصبح محامياً. في النهاية، يبرز في المشهد العام صحافياً لامعاً.

■ The Flash لأندريس موشياتي، تمثيل إزْرا ميلر وماريبل فاردو (الصورة) ومايكل كيتون: البطل الخارق «فلاش»، يُضطرّ إلى السفر عبر الزمن، لمنع مقتل والدته نورا. ليس مهمّاً معرفة سبب مقتلها، أو كيف عرف باري بالأمر. الأهم كامنٌ في أن باري نفسه سيتسبّب، من دون قصدٍ، في تغييرات جذرية، تؤدّي إلى نشوء كونٍ جديد ومتعدّد التوجّهات.

■ Eleonore لعمرو حمزاوي (لبناني مولود في باريس)، تمثيل نورا حمزاوي (الصورة): إليونور شابّة لا تنطبق عليها معايير الجمال، تتعرّض دائماً للاستخفاف والتنمّر. كاتبة، لكنّها غير معروفة. تُجبر على تغيير ملابسها، فتُقرّر تغيير حياتها أيضاً. تعمل مع ناشر متخصّص بالأدب الرومانسي، فتواجه تحدّيات إضافية.